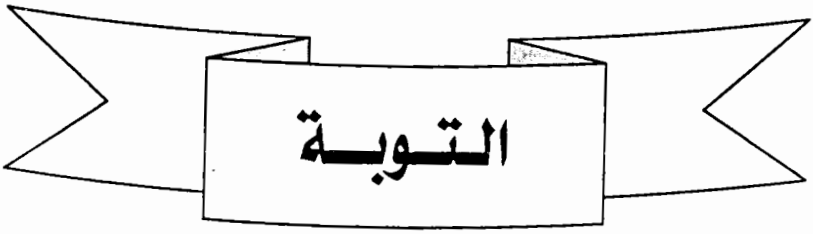

﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[التحريم: ٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله

وبـعـد..،

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۞ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾[1].

فهذه يا عبد الله عاقبة التواني! حسرة وندامة، ولوعة وأسى، وإقرار واعتذار، ولكن بعد فوات الأوان، حين:﴿لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[2]. فيا من أسرف على نفسه بكثرة الآثام، ونام عن ذنوبه وعين الله لا تنام، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾[3]. فإلى متى الغفلة وطول الرقاد، وكل من فر منه فإليه عاد؟!

وإلى متى يا عبد الله التواني؟ فإن الحياة دقائق وثواني!

---

(١) سورة الزمر: ٥٣-٥٨.

(٢) سورة غافر: ٥٢.

(٣) الفجر: ١٤.

فما الذي يثنيك عن التوبة، ويبعدك عن الإنابة؟

أغرور بربك؟ أم الأمن من مكره؟

فإن كان ذلك غرورًا، فهذا ربك يعاتبك ويناديك: ﴿يأيها الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[١].

وإن كان ذلك الأمن من مكره: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلا القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾[٢].

وإن كان ذلك يأسًا من رحمته: ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[٣].

ولم تيأس من رحمته؟ وهو سبحانه ينادي عباده الذين أسرفوا على أنفسهم: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤]. فسارع يا عبد الله إلى التوبة والإنابة، وإياك أن تتوانى في الرجوع إلى الله والاستجابة لندائه فتندم على تفريطك وتقصيرك بعد فوات الأوان، ولا يغلبنّ عليك اليأس فيمنعك الرجوع إلى الرحمن؛ فإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها، فسارع بالتوبة إلى الله تعالى تكن من الفائزين.

اعلم أخي: أن السالك إلى الله تعالى لا يصل إليه إلا بجناحين قويين يطير بهما إلى الله تعالى، وهذان الجناحان هما: الرجاء والخوف، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٥].

---

(١) الانفطار: ٦-٨.

(٢) الأعراف: ٩٩.

(٣) يوسف: ٨٧.

(٤) الزمر: ٥٣.

(٥) الزمر: ٥٣.

إن الرحمن سبحانه يفتح باب الأمل والرجاء والتوبة للجميع، ولا يطرد أحدًا من عباده، بل يسعهم جميعًا مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم ما أنابوا إليه وحده، وأخلصوا التوجه لوجهه الكريم، فهو سبحانه خير مقصود، لا يرد من قصد بابه خائبًا.

إن الله -عز وجل- يفرح بتوبة عباده ورجوعهم إلى طاعته؛ لأنه يحب العفو، ويحب الرحمة، ويريد أن يتوب عليهم ويرحمهم: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[١].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: "لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة"[٢].

وهو سبحانه يدعو عباده أن يدعوه ليستجيب لهم قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣].

ما أسرع تلك الإجابة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنها فورية تامة، وسرعة فائقة، وإجابة مباشرة، تدل عليها الآية بلفظها قبل أن تدل عليها بمعناها، فهو سبحانه قريب مجيب، يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٤]. "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها"[٥].

فسارعوا عباد الله إلى التوبة، فها هو ربكم يناديكم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ

---

(١) النساء: ٢٧-٢٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) غافر: ٦٠.

(٤) البقرة: ١٨٦.

(٥) أخرجه مسلم في (التوبة) باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت (٢٧٥٩).

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾[1].

فالمتقون ليسوا هم الذين لا يذنبون، ولكنهم هم الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.

وإذا لم يتب الله تعالى عليهم فإلى من يتوبون؟ من يستغفرون؟ فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله

وليعلم العبد أن الله تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، فمهما عملت من الذنوب ثم رجعت إلى الله تعالى فإن الله تعالى يقبل توبتك حتى ولو قتلت مائة نفس، فقد صح عن النبي ﷺ أنه أخبر بتوبة الله تعالى على رجل ممن كان قبلنا قتل مائة نفس، ثم تاب إلى الله تعالى فتاب عليه.

قال رسول الله ﷺ: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبًا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله. فجعل يسأل، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوُجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له"[2].

وليعلم العبد أن الله تعالى لا يرده ولو عاد إلى الذنب ألف مرة، ما دام يندم على ذنبه، ويرجع إلى الله تعالى بنية صادقة، وقلب منيب.

---

(١) آل عمران: ١٣٣-١٣٦.

(٢) متفق عليه.

ففي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه -عز وجل- قال: "أذنب عبدي ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك"[(١)].

فلا يمل العبد من تكرار التوبة والاستغفار من الذنب، فقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى ويتوب إليه في اليوم مائة مرة، وهو المعصوم، فعن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله كل يوم مائة مرة".

هذا لفظ مسلم في "صحيحه" ،ورواية البخاري قال: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[(٢)].

فإذا كان هذا حال النبي ﷺ المعصوم، فما بالنا نحن وقد أصابتنا الغفلة عن ذنوبنا، وغرتنا الحياة الدنيا عن الإنابة والرجوع إلى ربنا وخالقنا؟ فنسينا أننا سنرجع إليه في يوم لا ريب فيه! قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[(٣)].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَّجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا﴾[(٤)].

ودون ذلك أجل لا ريب فيه، إنه الموت، وهو جد قريب.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) البقرة:٢٨١.

(٤) المزمل:١٧.

"وإنه جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده -ألا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبر إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا انتظار ولا تربص إلا له، وحقيق بالعاقل أن يعد نفسه من الموتى ويراها من أصحاب القبور؛ فإن كل ما هو آت قريب قال الله -جل وعلا-: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال ﷺ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت" الحديث.

فهيا! هيا يا عباد الله قبل فوات الأوان، هيا: ﴿مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾.. فما هنالك من نصير.

هيا فالوقت غير مضمون. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، هيا"[1].

إن هذه هي أمارات التوبة النصوح:

الإنابة والرجوع إلى الله -عز وجل- وذلك بالإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم الرجوع إليه، والإسلام لله -عز وجل- والانقياد لأوامره.

فالتوبة النصوح هي كما قال الحسن البصري: أن يكون العبد نادمًا على ما مضى مجمعًا على ألا يعود.

وقال ابن القيم:" النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم

---

(١) الظلال: (٥/ ٣٠٥٨).

ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، **والثاني**: يتعلق بذات التائب، **والثالث**: يتعلق بمن يتوب إليه، فنصح التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة"[١].

فلابد للعبد أن يستيقظ من غفلته ويتدارك أمره بالإنابة إلى ربه قبل أن يفجأه هادم اللذات، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَّشَهِيدٌ ۞ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢].

فاحذروا يا عباد الله أن تتوانوا في الاستجابة إلى ربكم فيفاجئكم الموت، وتصيبكم حسرة الموت: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

إنها الحسرات والعبرات بعد الفوات.

---

(١) انظر "البحر الرائق": لأحمد فريد (ص١٥٩-١٦٠).

(٢) ق: ١٩-٢٢.

(٣) الزمر: ٥٦-٥٧.

إنها الحسرة التي تصيب كل مفرط في حق من حقوق الله: "إن أهل الجنة لا يتحسرون على شيء إلا على ساعة لم يذكروا الله تعالى فيها"[١].

إنها الحسرة التي تصيب أتباع الباطل حينما يعاينون زيف باطلهم الذي كانوا ينافحون عنه في الدنيا ليضلوا به عباد الله عن سواء السبيل، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢].

❁❁❁

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (ح٥٧٥٠).
(٢) الكهف: ١٠٣-١٠٤.